جوانب انسانية في شعر المهجر الجنوبي

بقلم عزيزة مريدن

ليس من السهل التوصل او الركون الى تعريف واحد للانسانية، او مفهوم دقيق ثابت يجمع صفاتها كلها ، ويحيط بمضمونها الواسع ، وجوانبها المتعددة . والبحث في الانسانية شائك محفوف بالصعوبات بقدر ما هو شيق وطريف ، لان هذه الكلمة مشتقة في الاصل من الانسان، ومفهوم الانسان ذلك المجهول ـ كما يقول اليكسيس كاريل ـ واسع شامل يصعب تحديده . فحين نتكلم عن الانسانية ، فاننا نتكلم على كل ما يمت بصلة الى الانسان . هذا ما يبدو للباحث من النظرة الاولى حسب المفهوم العام لهذه اللفظة ، ولكن المدقق فيها يدرك انها مصدر صناعي اصطلح عليه حديثا للدلالة على ما يقابله عند الغربيين من لفظة Humanité ، وتجدر الاشارة بنا هنا الى ان معاجمنا القديمة من الصحاح الى لسان العرب واساس البلاغة ، والقاموس المحيط، وغيرها لم تذكر في موادها التي تقرب من الثمانين الفا لفظ الانسانية واكثر من هذا فقد اختلف اصحابها في شرح كلمة الانسان واصل اشتقاقها . ويخيل الينا ان المعجم الاول الذي ادخل هذه اللفظة في لغتنا ،وفسرها هو (محيط المحيط) للمعلم بطرس البستاني ، وهذا يعني ان عمر اللفظة في لغتنا لا يزيد على مئة وخمسين سنة . ونلته بعض القواميس الاخرى التي لم تزد على ما قاله البستاني في تفسير هذه الكلمة،فهي تدل على (ما اختص به الانسان ، واكثر استعمالها لمحامد الاخلاق ومحاسن النفس من نحو الجود وكرم الاخلاق) .

اما كتب الادب العربي القديمة ، فلا نظن انها عرضت لهذه الكلمة، لكن (ـ ابا حيان التوحيدي) اتى على ذكرها في احدى مقابساته . كما ان شغله ببعض الامور الفكرية والفلسفية جعله يوجه (لابي علي مسكويه) سؤالا يستفهم فيه عن حقيقة النفس والانسان وعلاقتهما ببعضهما فيقول « ما ملتمس النفس في هذا العالم ؟ ما نسبتها الى الانسان ؟ وهل لها به قوام ؟ او له بها قوام ؟ وان كان هذا فعلى اي وجه هو ؟ واوسع من هذا الفضاء حديث الانسان ، فان الانسان قد اشكل عليه الانسان » .

وقد جاء في رد (مسكويه) قوله : « فاما حديث الانسان الذي شكوت طوله ، وحكيت من الكلام المتردد الذي لم يفدك طائلا ، فالذي ينبغي أن تعتمد عليه هو ان هذه اللفظة موضوعة على الشيء المركب من نفس ناطقة وجسم طبيعي » ويستطرد مسكويه بعد ذلك ليضرب امثلة حية ، مقربا بها معنى الشيء المركب ، ولكنه يعود الى تعريف صفات الانسان في موضع اخر فيقول : « ان الانسان من حيث هو حيوان،قد شارك البهائم في غرض الحيوانية وكمالها .. الا ان الحيوانية لما لم تكن صورته الخاصة به ، المميزة له عن غيره ، لم تصدر هذه الاشياء منه على اتم احوالها . »

وندرك من عبارة مسكويه هذه انه يجعل الانسان يشارك الحيوان في صفات الحيوانية ، ولكن له صفات خاصة به تميزه عن الحيوان ، يكون جديرا معها بصفة الانسانية ، اذ يقول بعد قليل : « ... ولما كانت صورته الخاصة به التي ميزته عن غيره هو العقل وخصائصه من التمييز والروية ، وجب ان تكون انسانيته في هذه الاشياء ، فكل من كان حظه من هذه الخصائص اكثر ، كان اكثر انسانية ، كما ان الاشياء التي عددناها كلما كان منها حظه من صورته الخاصة به اكثر ، كان فضله في اشكاله اظهر . » .

نفهم من هذا ان الصفات المميزة للانسانية والتي يستحق معها ان ينعت بلفظة الانسانية تتلخص في العقل وخصائصه من الروية والتمييز، وان انسانية الانسان تتحقق به وبخصائصه ، ويتبع ذلك تزويد العقل بخصائص العلوم والمعارف ، واطالة الروية ، واعمال الفكرة فيها ، واختيار الافضل والامثل ، حتى يصل الانسان الى اعلى مرتبة في سلم الانسانية .

ولا بد للانسان كذلك من صفات نفسية تتبع هذه وتكملها ، وقد جاء في دائرة معارف القرن العشرين ان لفظ الانسان « يطلق على معنيين : عام وخاص ، والاول منهما يقال لمن عرف الحق فاعتقده،والخير فعمله بحسب وسعه ، وهذا معنى يتفاضل فيه الناس ويتفاوتون فيه تفاوتا بعيدا ، وبحسب تحصيله يستحق الانسانية ، وهي تعاطي الفعل المختص بالانسان ، فيقال فلان اكثر انسانية .. » .

بهذين المعنيين العقلي والنفسي اللذين يكمل احدهما الاخر،نكون قد وضعنا يدنا على الاسس العامة التي جعلها بعض كتابنا ومفكرينا قديما وحديثا قواما للانسانية ، او هي قوام الانسان الكامل السامي .

ومما لا ريب فيه ان كلمة الانسانية لم تنتشر الا في عصرنا الحديث حين بدأ اتصالنا بالغرب ، فاقتبسنا منه ، وترجمنا علومه وفنونه،فكان ان وقعنا في اللغة الفرنسية على لفظتين تمتان الى الانسانية بصلة وثيقة هما : Humanisme و Humanité وكان اللاتينيون اول من استعمل هذه الكلمة للدلالة على الدراسات التي تدور حول الانسان، وكانت كلمة الانسانيين تعني في القرن السادس عشر : الادباء الذين يقفون انفسهم على دراسة حضارة العصور القديمة ، والعناية بالثقافة والمؤلفات اليونانية اللاتينية وكانوا مولعين باللغة الجميلة ، والتأنق في الصياغة والتعبير .

ومن بين المعاني الكثيرة التي اشار اليها (لا لاند) في معجمه،حول كلمة الانسانية ، انها (الشفقة ، او احساس الانسان العفوي تجاه الاخرين المشابهين له) . فهل هذه المعاني التي عرضنا لها كانت مدار الشعر الانساني ، ام ان الى جانبها معاني انسانية اخرى ؟

لو تطلعنا بابصارنا الى ما وراء البحار ، لرأينا اوتارا انسانية في المهجر الشمالي ، تنبعث منها الحان تعزف لنا موسيقى المحبة والحنان، والرحمة والسلام ، واذا بتعاليم الانجيل تسري في ثناياها متأثرة بالسيد المسيح الذي يقول في بعض نصائحه : « احبوا ، ارحموا ، من يحب يعطف ويرحم من اعمال قلبه ، ويندفع ليضمد جراح الانسانية الدامية. من يحب يبذل بسخاء ، ولو كان البذل من ذات روحه ، من يحب يصبح اكثر من انسان ، يصبح ملك الرحمة ... » ، لقد سمعنا هذه التعاليم وغيرها تتردد على اقلام (جبران ونعيمة وابي ماضي وعريضه وغيرهم)، ولعل للمحيط المادي الالي الصاخب الذي عاشوا فيه شأنا كبيرا في اتجاههم الانساني هذا وبما حملوه من مآثر روحية معنوية . وخير ما يمثل لنا انسانية المهجريين الشماليين مناجاة (ايليا ابي ماضي) لرفيقه الانسان بقوله :

يا رفيقي انا لولا انت ما وقعت لحنا
كنت في سري لما كنت وحدي اتغنى ..

وحتى في القفر حين هام على وجهه تخلصا من اوزار الناس، وتوقا الى حياة الغاب الحرة النائية ، كان يحس بوجود البشر جميعهم معه يماشونه ويسايرونه :

خلت اني في القفر اصبحت وحدي فاذا الناس كلهم في ثيابي

اما شعراء المهجر الجنوبي فلقد عبروا عن نزعتهم الانسانية،حينما استولى على نفوسهم الشعور بالسأم القاتل ، والقنوط المحطم ،واخذت على نفوسهم منه ازمة روحية ما لبثت ان امتلأت بالحقد والثورة على القوة المادية التي تهدد بالحرب ، وتلوح بها كلما هددت مصالح اصحابها في البلاد الاخرى . ووجد هؤلاء الشعراء ـ بما انطوت عليه تقاليدهم الشرقية ، وتراثهم العربي من مبادىء روحية سامية ، ان بوسعهم حل مغاليق هذه الازمة ، فراحوا ينشرون السعادة في العالم المادي،ويعملون على اشاعة المحبة في النفوس ، ويبذرون فيها المثل الانسانية الداعية الى العدل والحق والخير والسلام .

ولقد قام بين من كتبوا عن ادب المهجر شبه اجماع على ان الشاعر (شفيق معلوف) من ابرز الشعراء الانسانيين في المهجر الجنوبي ، فلا بد اذن من ان نبدأ بتحديد مفهوم الانسانية عنده . ولقد ذكر في احدى رسائله ان مفهومه لها يتلخص في « شعور الانسان مع الانسان ، بكل‌ما في هذا التعبير من شمول » ويذهب الى ابعد من ذلك فيقول : (هو ايضا شعور الانسان مع الحيوان والنبات ، واحيانا شعوره بدافع‌الالفة مع الجماد ، فهذا العطف الذي يدفع الجنس الى الحدب على جنسه ، يتعذر خلقه غالبا الا في الانسان) .

وشبيه بهذا المعنى ما ذكره الشاعر (جورج صيدح) عن الانسانية فقال : « لقد عرفتها عن طريق ضميري ووجداني ، واكتفيت بذلك،انها في البدء شعور غريزي بقرابة تربطني ببني الانسان ، وبتضامن معجميع خلق الله .. وهي بعد ذلك عمل ايجابي ، وسعي صادق لخدمة‌البشرية في حدود مواهبي وامكانياتي » .

وهو اذن يضيف الى الشعور بالتعاطف العفوي بين ابناء البشرية عملا ارادياً ايجابيا يسهم فيه كل امرىء بخدمة الاخرين قدر استطاعته.

وثمة مفهوم اخر للانسانية عند الشاعر (نعمة قازان) من مفهومه للادب عامة فهو يرى ان الادب (رسالة قبل كل شيء تطهر النفوس من اوضارها ، وتوجهها نحو انسانية مثلى ، لتصل الى غايتها من الكمال حين تصل بمصدرها الاعظم (الله) ، وعلى هذا فالادب هو كل ما يخفف من لوعة ويجفف من دمعة ، ويشدد من همة ، ويولد من بهجة ، وكل ما عداه ليس ادبا ولا قيمة له :

هو في النفس ان تضحي كثيرا وكثيراً حتى تصير الها
كاملا في محبة الابعدينا

واخيرا فان للاستاذ (نظير زيتون) مفهوما جامعا لكل عناصر الانسانية اذ يقول : « فالانسانية عندي هي الشعور الكلي العميق‌المطلق بان الانسان واحد على اختلاف الالوان والسلالات والاوطان ، وبانه اكرم المخلوقات واشرفها واعظمها واسماها ، وبان اعماله واقواله واهدافه ، يجب ان تنبع من كرامته وشرفه وعظمته وسموه ، وهي الصفات التي تتمثل في العطاء يدا وقلبا وفكرا، واصلاح بناء وتنويرا وتحريرا، والابداع روحا وخلقا وعملا ، والبطولة مروءة واحسانا وتساميا ، الى جانب‌الحب المطلق مطلبا ومذهبا ومأربا ، والجمال نفسا وموردا ومنهجا ، ونشدان الكمال والاعتصام بالحق الذي هو قبس من نور الله ، وهذا يعني ان الانسانية بجوهرها وهدفها هي اسعاد النفس ، وتلبية ندائها باسعاد « الاخرين » .

ولا ريب في ان هذا التعريف الجامع المانع لمفهوم الانسانية يجب ما قبله من المفاهيم اذ يشملها كلها ، ويفضلها شرحا وتفصيلا .

ولو القينا بسمعنا قليلا الى ما يدور في لهجتنا العامية من الفاظ تدل على معنى الانسانية لاسترعى انتباهنا ان العامة استعملوا لفظة (الادمية) فقالوا : فلان ادمي . وجمعوها على اوادم ، للدلالة على‌محامد الاخلاق ، ومحاسن النفس ، وادم يمثل الانسان الاول الذي سجد له الملائكة بامر ربهم ، وهذا يعني ان العامة استدركوا ما فات لغويينا القدامى فاصابوا .

ونحب ان نضيف هنا ان نظرة حانية على حيوان اعجم يعتدى عليه ، او طائر يسقط برصاص صياد ، او وردة ذابلة القي بها على‌قارعة الطريق ، او على حشرة محتقرة ، كنظرة (ابي ماضي) الى (الفراشة المحتضرة) ، ان نظرة كهذه هي انسانية ، وانسانية عميقة ، والذي يعمق معناها ـ بالطبع ـ انما هو قلم الفنان الاصيل الذي يستطيع ان يسبغ عليها الحياة والجمال ، فيوحي الينا بمعانيها الانسانية النبيلة.

على ضوء هذه المفاهيم الانسانية المختلفة نقلب دواوين شعراء المهجر الجنوبي ، فنطالعنا من ثناياها ابيات متفرقات ، ان لم تحو تعريفا جامعا للانسانية ، فان كلا منها يلقي الينا بشعاع من طيفها : من قلب (الشاعر القروي) المحب للعالم كله ، كما هو محب لوطنه وامته ، ينبعث الينا هذا الشعاع من المحبة اذ يقول :

لي قلب يسع الكون فلا تسألوني ما الذي تهوى ومن
كل شيء فيه شيء حسن وانا اهوى من الشيء الحسن

ومن وجدان الشاعر (شفيق معلوف) ينساب الينا شعاع اخر هو شعاع الاخوة والحنان والتعاطف مع جميع افراد البشرية اذ يقول :

كن بسمة بفم الضعيف ولا تزد تالله اتراحا على اتراحه
ما ضر ان يحظى اخوك بحقه فترى فلاحك ناجزا بفلاحه
انحق بطلان الوجود ولا نرى اشباهه تحنو على اشباهه
ضرب الشعوب قويها بضعيفها كالطير تذبحه بريش جناحه

ولون اخر يشرق علينا من قول الشاعر (نمر سمعان) فيضيء لنا الطريق الى البذل ، والاحسان :

لما رأيت يد الاحسان تمسحها ايقنت اني رأيت الله انسانا

ويضيء في طيف الانسانية شعاع جديد حينما يعلو صوت‌الشاعر (جورج صوايا) صارخا بالناس ، منبها للعدل والحق والعلم قائلا :

حققوا العدل ايها الناس في الناس وبثوا العفاف في كل لب
علموا الحق انشروه رضيعا للسبيل السوي يهدي الجموعا
عمموا العلم واركبوه جناح الصدق يجتث من الانام الرذيلة

وهكذا كما تجتمع الوان الطيف وتتحد ، فتكون قبسا واحدا من النور ، كذلك فان الالوان المتعددة ، والاشعة المختلفة قد ضمت الى بعضها ، فكونت لنا طيفا انسانيا واحدا ، فما هي اذن موضوعات هذه النزعة الانسانية ؟ وهل كان لها من التعدد والتنوع ما يجعلها جديرة بان تضم الى بعضها فتؤلف اتجاها واضحا ؟

مما لا ريب فيه ان هناك قيما انسانية مشتركة ، وفضائل عامة ، يؤمن بها البشر على اختلاف الوانهم ومذاهبهم واجناسهم ، تشيع في نفوسهم شعورا بالتوافق‌والتعاطف بين افراد العالم كله ، كالمحبة والاخاء، والخير ، والبذل ، والوفاء ، وعواطف الامومة والابوة ، والثورة على التكبر والظلم ، والمطالبة بالحق والعدل وما الى ذلك من فضائل‌نفسية اجتماعية . ونحن على شبه اليقين انه ما من شاعر من شعراء المهجر الجنوبي لم تدفعه ربة شعره الى التغني ببعض هذه القيم الانسانية او بمعظمها هذا بالاضافة الى ان بعضهم صور اصحاب المهن الصغيرة التي تبدو محتقرة لدى بعض الناس ، ولكنها تعتبر في نظرهم هم مهنا انسانية نافعة ، لا تقل عن المهن الكبيرة ، وعرض بعضهم آراءه ، في فلسفة الحياة ، واطلق لتأملاته العنان ، فيها ، فرأى ان الحياة مملوءة بالشرور والاثام ، وان الانسان فيها شرير بطبعه ، ودعا اخرون الى‌الاقبال على‌الحياة والاستمتاع بها . والمدقق في هذه الموضوعات كلها يستطيع ان يردها الى اتجاهين اثنين :

اولهما : تصوير الفضائل الانسانية ، والتغني بها تغنيا يصح ان نسميه رومانسيا لانهم لم يتحدثوا عنها على انها مذهب من المذاهب المقننة ، او عقيدة من العقائد المتبلورة ، وانما صوروها تصويرا عاطفيا مؤثرا ، وحببوا الناس بها لانها غاية انسانية ، ومطلب عام ، ولانها في ذاتها تمثل قيمة جمالية ، سعد بها البشر جميعا .

وثانيهما : دعوة شبه عقائدية ، مبنية على اسس انسانية ، وحقوق بشرية عامة لابد للناس كلهم من‌التمتع بها على اختلاف‌اوطانهم،ومذاهبهم: كالحق والحرية والعدالة والمساواة والسلام . ويضاف الى هذه الدعوة تمجيد القيمة الانسانية ، وتقويم الانسان على قدر ما تتمثل فيه هذه الفضائل بصرف النظر عن وضعه الاجتماعي .

واقتصر هنا على التنويه بالاتجاه الاول فقط .

***

كانت المحبة في الاتجاه الاول الرومانسي ، اولى الفضائل الانسانية التي نادى بها شعراء المهجر الجنوبي ، المحبة بمعناها الواسع الشامل ، المحبة للناس اجمعين ، فيها وحدها سيقضى على الجريمة في الارض ، وسينقلب الشقاء سعادة ، ويعم الخير والفضيلة العالم باسره . يقول الشاعر القروي :

هو الحب حتى ليس في الارض مجرم ... ولا مدمع يجري عليها ولا دم
وحتى كان القلب في خفقانه ... يود به نطقا كما نطق الفم
فقل للذي لم يعرف الحب قلبه ... ولم يسلف الا شاكيا يتألم
ايا صاحبي ان العداء جهنم ... وما فيه من عز لتحلو جهنم
ويا صاحبي ان التجهم يقتضي ... من الجهد ما لا يقتضيه التبسم

وهذا هو الشاعر (نعمة قازان) الذي وقف معظم شعره على النزعة الانسانية ، وعلى الدعوة الى المحبة ، خاصة ، اذ لا يؤمن الا بالحب دينا يقول :

الا كل دين ما خلا الحب بدعة ... وكل اجتهاد ما عداه ظنون

واكثر من هذا انه يدعو الى دين الحب الذي يبارك اللاعنين المبغضين ، ويتسع للاعداء والمسيئين ـ كما جاء في الانجيل ـ الحب الذي هو خبز الانسان وخمره :

على رسلكم يا قوم ما انا مؤمن ... بغير انفجار الحب بين الجوانب
فلو لم تقم فينا المحبة لم نمت ... وهيهات ان نحيا بغير التحابب
لقد قام بالحب المسيح من الردى ... ومتم على دين المسيح العجائبي
هو الخير لا يحيا به غير آكل ... هو الخمر لم يسكر بها غير شارب

ويتلفت الشاعر (القروي) حوله ، فلا يرى في الناس الا وجوها كالحة عابسة دأبها الظلم ، فيخاطب اصحابها ويدعوهم الى الحب قائلا :

يا كل من فوق سطح الارض قاطبة ... لولاكم لم يكن في ارضكم باس
لا تظلموا تسعدوا فالظلم تجربة ... يدعو اليها عدو الناس خناس
ان السعادة لو سويتها بشرا ... فالحب والعدل منها القلب والرأس
شريعة الحب في الدنيا توحدكم ... مهما تعدد اديان واجناس

وتقتضي هذه الشريعة اسعاد الاخرين ، وتضميد جراح البائسين ، والاخذ بيد الضعفاء ، والاحسان للمعوزين ، والبعد عن الشرور ، واشاعة التفاؤل والرضا في نفوس المحزونين والمتشائمين ، وهذا كله لا ينبع الا من صدر حنون اشرب معنى العاطفة والرحمة ومن قلب عطوف كبير ، لذلك يقول الشاعر القروي :

اجعل الارض حيث كنت جنانا ... ان تكن قد هجرت منها جنانا
صفرت نفس حاصر النفس في اشبار ارض يعدها اوطانا
بسمة تظهر الفقير غنيا ... دمعة تمسح الشجاع جبانا
فتلق الحياة بالبشر فالعيش ... نعيم ان لم تكن شيطانا

ويلخص لنا فيمة الانسان التي تتجلى في انسانيته حين يقول :

كن اله النضار انك عندي ... لست شيئا ما لم تكن انسانا
اشبع العقل حكمة واختبارا ... واملأ القلب رحمة وحنانا
ولك الارض والسماء وهل ... يدعى فقيرا من يملك الاكوانا ؟

وليس بخاف ما في هذه القصيدة من دعوة الى بث التفاؤل في النفوس تشبه الى حد كبير ما بثه (ايليا ابو ماضي) في قصائده العديدة ، مثل (ابتسم ، وكم تشتكي ، كن بلسما ، عش للجمال ، السماء) وغيرها .

واجمل دعوة للبذل والجود والسخاء صاغ كلماتها كذلك الشاعر (القروي) متخذا من حبة القمح الصغيرة مثلا رائعا يقتدي به الانسان ، فابدع معنى قلما يخطر على بال :

من حبة القمح اتخذ مثل الندى ... يا من قبضت عن الندى يمناكا
هي حبة اعطتك عشر سنابل ... لتجود انت بحبة لسواكا
حلمت بان ستعيش في خبز القرى ... فتراقصت للموت نحو رحاكا
وكأنما الشق الذي في وسطها ... لك قائل : نصفي يخص اخاكا

ولقد ذاق معظم شعراء المهجر مرارة الفقر والحرمان ، وعانوا من الوان المشقة والجوع ما عانوا ، فجعلهم هذا يدعون الى البذل ، حتى اصبح مادة غزيرة في شعرهم الانساني ، تنوعت اساليب الدعوة اليه ، واختلفت طرائق التعبير عنه ، فهذا الشاعر (نمر سمعان) يصور شعوره في قصيدة القاها في اليوبيل الذهبي (للميتم السوري) فيجعل الله سبحانه ممثلا بانسان محسن :

لما رأيت يد الاحسان تمسحها ... ايقنت اني رأيت الله انسانا
قل للمدل بجاه لا تزخرفه ... الا اباطيل اشكالا والوانا
الفقر في ان تراك العين مرتديا ... ثوب الغنى ويراك القلب عريانا
ان الفضيلة لا غاضت مناهلها ... تفيض بالحب انهارا وغدرانا
في وسع كل امرىء ارواء غلته ... منها فكيف تعيش العمر ظمآنا

ومن القصائد التي تستحق منا وقفة متأنية في هذا الباب ، قصيدة شاعر العاصي (ميشيل مغربي) التي يخاطب فيها الانسان المتباهي بجوده ، المزدهي بكرمه ، مقارنا احسانه هذا باحسان الطبيعة الخيرة فيقول :

ان رأيت الشمس قد القت على الارض الشعاعا
تبعث الدف فتحييها بقاعا فبقاعا
وتبث النور في الكون فتجلوه شعاعا
ان رأيت الشمس لا تفخر بما انت تجود
ان احسانك لا يبلغ احسان الوجود

وهاك مثلا اخر ، الغيث ، انه يروي الزرع والضرع ، فيمنح الخيرات ، وينشر الخصب فيحيي الارض الموات :

ان رأيت الغيث يروي الارض في تهطاله
وحياة الزرع والضرع على اذياله
والربيع الفض والصيف جنى افضاله
ان رأيت الغيث لا تفخر بما انت تجود
ان احسانك لا يبلغ احسان الوجود

وامنا الارض ، انها تبدي لنا في كل حين الوانا من الجمال ، واي فضل يعدل فضلها حينما تتلقى الجيفة العفنة ، فتردها زهرا وثمرا وانتاجا طيبا :

ان رأيت الارض تبدي من جمال صورا
تأخذ الاقذار والنتن وتعطي الزهرا
وترد الجيفة العمياء حيا مبصرا
ان رأيت الارض لا تفخر بما انت تجود
ان احسانك قد قارب احسان الوجود

تلك هي بعض الفضائل الرئيسية ، والمثل الانسانية التي تغنى بها شعراء المهجر الجنوبي ، ودعوا الى التحلي بها ليسود المجتمع الانساني الخير واليمن والسعادة ، بيد ان الى جانبها فضائل اخرى متفرقة ، لم يكن الحاح الشعراء عليها كالحاحهم على ما سبقها . ففي قصيدة (المتكبرون) يرى (الشاعر القروي) ان الناس متساوون في خلقهم لم تكشف لبعضهم حجب الغيب واسرار الكون دون غيرهم ، وقد تساووا كذلك في الحياة والموت ، وان قيمة الانسان بما يقدمه من نفع لابناء البشرية كلها ، والا فعلام يصعر المتكبرون خدودهم للناس ؟ هل عرفوا حقيقة ما :

وهل كشفوا من الاكوان سرا ... وهل عرفوا البداءة والختاما
وهل جبلوا جسومهم بخمر ... وهل نحتوا من العاج العظاما
وهل يغدون تحت الارض تبرا ... ويمسي غيرهم فيها رغاما
اليس قوامهم ماء وطينا ... كما خلق الاله لنا قواما
فان كانوا كغيرهم اناسا ... علام اذن قد احتقروا الاناما
وان لم ينفعوا الدنيا بشيء ... اذن فعلام منتهم علاما ؟

اسئلة كثيرة تخطر ببال الشاعر ، يهدف من ورائها الى تحطيم كبرياء المتغطرسين ونزع اقنعة المتعالين المتكبرين ، ليضع حدا لانانيتهم وتعاليهم .

***

ومن الشعر الانساني العميق الذي يصور جانبا من العواطف

الانسانية النبيلة ، ويتغنى بها غناء رومانسيا ، تلك القصائد التي قيلت في (الامهات والابناء) وقديما لم يعرف الادب العربي شعرا في تقدير الامومة الا في القليل النادر ، وان كانت بعض القصائد التي صورت عاطفة الاباء نحو ابنائهم ، او الابناء نحو امهاتهم عن طريق الرثاء فحسب.

اما في عصرنا الحاضر ، فقد دخلت ادبنا العربي موضوعات جديدة، تنبهنا الى قسم كبير منها عن طريق اطلاعنا المباشر على الادب الغربي ، او التأثر بمن تأثر به ونقل عنه . ولعل منها تلك الموضوعات التي تصور العواطف الانسانية الاجتماعية ، او التي يصح ان نسميها (العلاقات الانسانية العاطفية) .

وتطالعنا عند شعراء المهجر الجنوبي قصائد كثيرة قيلت في تمجيد (الام) والاشادة بما لها من فضل على ابنائها خاصة ، وعلى الانسانية عمة ، فالام تبذل من عطفها وحنانها لابنائها دون ان تترقب عوضا ، او تنتظر اجرا ، وهي تشقى لشقائهم وتسعد لسعادتهم ، وتسهر على راحتهم ، فهي ملاك الطهر والرحمة ، ومهما بذل الابناء من اجلها ، فلن يوفوا معشار ما لها في اعناقهم من دين .

ويلاحظ الباحث ان معظم هذه القصائد قيلت في امهات الشعراء بالذات ولكن بعضهم سمت عاطفته ونجردت ، فاستطاع ان يصور الام ، كل ام على وجه الارض فبلغ بذلك مرتبة انسانية رفيعة . ويروقنا هنا ان نعرض الى قصيدة (الشلال) للشاعر (توفيق بربر) التي اهداها الى الام في كل زمان ومكان ، وهي رائعة في معانيها ، وخاصة حينما يقارن بين الشلال المتدفق من اعالي الجبال ، وبين شلال الامومة والمحبة، والعطف والحنان ، فيقول :

الا ايها الشلال ينصب من عل ... فينساب في عزم الشباب تمهل
فلست على هذي الغزارة كلها ... وانت الذي يزجي الجزيل باجزل
كأم اذا انكبت على نحر طفلها ... ترويه من ثغر الحنان بسلسل
هنالك شلال من الحب ناطق ... باروع ايات الوجود واكمل
على وجهها تطفو البشاشة والرضا ... كأن الضحى في وجهها المتهلل

انه تصوير جميل لعاطفة الحنان التي تعمر قلب كل ام ، ولكن الاجمل منه وقوف الشاعر عند صورة اخرى رائعة تمثل الامومة ذاتها ، صورة شدته وسمرته في مكانه ، فراح يرسمها لنا بقلمه الفني ، انها صورة الرضيع يمتص ثدي امه ، فينهل منه الحنان ، وهي تبتسم له من النشوة والغبطة :

ولله منها وهو يمتص ثديها ... كما يحتسي العصفور من ماء منهل
تهش له عن غبطة في كيانها ... تدب دبيب الخمر في كل مفصل
اذا وسدته صدرها يا رؤى اخشعي ... وغضي وقارا يا قرائح واخجلي
ويا زهر خري من سمائك واسجدي ... وذوبي التياعا يا عواطف واشعلي

الى ان يقول :

الا ان قلب الام ينبوع رحمة ... يلين له الجلمود والليل ينجلي
وهل غير قلب الام يعطيك شاكرا ... ويزجي عطاياه بروح التوسل

ثم يلفت نظر الناس حوله الى واجب الاحتفاء بالام والاشادة بفضلها ومكانتها :

فلو زينوا الجدران طرا برسمها ... واحيوا لها الاعياد في كل محفل
وشادوا لها الانصاب في كل ساحة ... وصلوا لها كالله في كل هيكل
يمينا لما وفى الامومة حقها ... عليهم ومن يبذل لها النفس ينجل
فان لها دينا على الناس كلهم ... وليس الذي يرعى الجميل كمهمل
فلا حب الا حبها فهو ثابت ... فلم ينحرف يوما ولم يتحول

وفي ديوان (الشاعر القروي) اربع قصائد تصور ينبوع العطف والحنان ، لعل اروعها قصيدته (حضن الام) التي يقص علينا فيها اسطورة حشوها العقيدة المسيحية التي ترى ان المسيح هو (ابن الله)، وخلاصتها : ان اله موسى كان قاسيا يلتذ برؤية الدم ، ثم غدا ليلين القلب حنونا ، فكيف كان ذلك ؟

روى الراوون انهم عثروا في مصر على درج غريب الخط ، فحاول العلماء فك رموزه ، ولكنه بدا لهم طلسما ، ثم جيء بشاعر ليقرأه فاذا به : ان شاعرا ملهما قبل عيسى توفي في الشرق ، وكان عاصيا لربه ، فكاد يلقى به في جهنم ولكن بر والديه طغى على سيئاته ، فنجا من النار، ثم جازاه الاله جزاء العباد الاتقياء ، فوضعه لينام في حضن ابراهيم ، لكن شاعرنا تبرم وشكا الى ربه ، فهدأ روعه ، ووسده حضنه ، ثم قبله وضمه ، ولكن الشاعر عاد الى الشكوى من جديد فضج اهل الجنة ، وصاح الاله غضبا وسأله عن سبب بكائه :

فصاح العفو يا مولاي من لي ... سواك ومن سوى الرحمن يرحم
اتيتك راجيا نقلي لحضن ... احب الي من نفسي واكرم
لحضن طالما قد نمت فيه ... قرير العين بين الضم والشم
اما القيت رأسك فوق صدر ... حنون خافق بمحبة الام
فدعني من نعيم الخلد اني ... نعيمي بين ذاك الصدر والفم
تربتني كعادتها برفق ... وتنشد ثم حبيبي بالهنا نم

وهنا اطرق سيد الاكوان لشكوى الشاعر ، وعجب كيف لم يدر بهذا النعيم من قبل ، فصمم على اكتشاف هذا السر :

وكانت ليلة فاذا صبي ... صغير نائم في حضن مريم

لقد احدثت هذه القصيدة ضجة في عالم الادب حينما نشرت وترجمت الى لغات عديدة لانها تمثل العقيدة المسيحية من ناحية، ولانها تصور عاطفة الامومة الانسانية من ناحية ثانية ..

***

وننتقل الان الى لون جديدة من العواطف الانسانية ، تلك التي تصور مشاعر الاباء نحو الابناء ، واية عاطفة اكثر انسانية من عاطفة الابوة ؟ ان الاب ليرى ابناءه زهرة حياته ، وثمرة حبه ، وقرة عينه ونفسه ، اذا مرضوا ود لو يفتدي حياتهم بحياته ، واذا حزنوا حاول بشتى الطرائق ان يبدد احزانهم ويدخل السرور على قلوبهم ، واذا حلا النوم في عينيه ، فلابنائه الذ واحلى ، وقديما قال الشاعر :

وانما اولادنا بيننا ... اكبادنا تمشي على الارض
لو هبت الريح على بعضهم ... لامتنعت عيني عن الغمض

ومن اجمل القصائد التي تصور هذه العاطفة الانسانية تصويرا رومانسيا دقيقا تلك التي نظمها الشاعر (توفيق بربر) في صغيرته (زيزا) وهو اسم تصغير (جيزالا) ، تلطفا وتحببا ، يقول فيها :

صغيرة بيتي وحبة قلبي ... وزهرة عيشي وثمرة حبي
وغرة وجهي ، وقرة عيني ... وخمرة روحي وسكرة لبي
ومعنى وجودي وكنه خلودي ... وبيت قصيدي وآية ربي

انها انغام موسيقية حنون تنبعث من قلب مفعم بالعاطفة الابوية الصادقة ، والمحبة العميقة تعبر ادق تعبير عما يكنه هذا الاب العاطفي والشاعر الرومانسي لابنته (زيزا) فيجعل القارىء ينفعل معه، ويشاركه احساسه . ولم يقف الشاعر عند هذا الحد ، بل راح يصور لنا قسماتها الدقيقة ، وصوتها البلبلي الرنان ، وما يشعر به من سعادة حينما تحوم حوله :

كأن النسيم الحنون حباها ... ادق المعاني لتسبي وتصبي
تزقزق حولي فتشرق شمسي ... ويزهر قفري وتورق دربي
وتغدو الحياة سلاما وبردا ... وان الحياة لحرب بحرب

وعند ذاك لا يتمالك هذا الاب العطوف الا ان يعانق ابنته ويضمها الى صدره فيتراءى له انه يعانق بلاده وشعبه ، ثم تنام في حضنه ، فتهيم به الاحلام في اجواء فواحة بالعطور ، وعوالم زاخرة بالاماني ، فيرى نفسه اميرا يتسنم العرش ، وحوله الجواري رهن اشارته :

اشد عليها لصدري كأني ... اعانق فيها بلادي وشعبي
تنام بحضني فاحلم اني ... نشرت لوائي بشرق وغرب
واني امير وتحتي سرير ... وحولي اماء تنفذ رغبي
واني استعدت شبابي واني ... اجتمعت بشملي وأهلي وصحبي
فيا طيب انفاس ريحانة ... ترف بقلبي وعيني وهدبي

وللشاعر (عقل الجر) قصيدة مشابهة لهذه في بعض معانيها، وفي جوها العاطفي العام يصور فيها عاطفة الام المفتونة بابنها ، المطلة من خلاله على الغد الباسم ، يقول فيها :

اعطيتـــه كالصبـــح غـــرته ... ملكـــا تقمـص صـورة الـــولد
ازهـــو بطلعتـــه واحسبـــه ... الكـــون جمـــع كله بيـــدي
واطـل منـه علـى غـد لمعـت ... امـاله فـــي مفـرق الابـــد

ثم يرسم لنا صورة عفوية ، اذ يطيف الولد بامه ويشدو حولهـا تارة ، ويداعبها تارة اخرى منشبا يده في عينها ونحرها ، والام مستسلمة سعيدة ، تقبل ابنها ، وتضمه بحنان الى صدرها حتى لتكاد ترجعه الى كبدها :

تهتاجني مـن فيـه زقزقـة ... تـــزري بصـــوت البلبل الفرد
ويهـف نحـوي منشبـا يـده ... في العين او في النحـر والعضد
فازقـه قبلـــي وارهقـه ... واكـــاد ارجعـه الـى كبـدي

واذا عرفنا ان هذه القصيدة صدرت كلها عن خيال الشاعر اذ لم يجرب الابوة قط فقد عاش عزبا طوال حياته ، اكبرنا فيه دقة التصوير، وازددنا اعجابا بقدرته على التخيل والتمثيل .

وللشاعر (جورج صيدح) قصائد عديدة تصور عواطف الابـوة الصادقة ، نجدها في قسم خاص من ديوانه ، اطلق عليه اسم (اكباد) ليدل بذلك على مشاعره نحو وجيدته وابنائها . ومنها قصيدة نظمها في عيد ميلاد (جاكلين) التي ولدت في (فنزويلا) من ام فرنسية ، واب عربي دمشقي ، يقول فيها :

نشـأت بيـن جفـون الياسميـن ... زهرة في الروض تسبي الناظرين
عبقت باريـز فـــي اكمـامها ... ودمشق الشام فـي العرق الوتين
فلـذة للشرق والغرب ســـرت ... (للفنزويلا) بهـا الروح الامين

ثم صور لنا نظرة الاب الراضية التي تأبـى الا ان تجعلها ممتازة عن سائر بنات جنسها بالجمال الكامل :

اتراهـا خيـرت فـي خلقهـــا ... فاتـت كاملـة الحسـن المبيـن
ام بـراها الله مـن ذوي السنـا ... وبنـات النـاس مـن مـاء وطين
قـد عبدت الله فـي صورتهـا ... وارتضيت الكفـر كفـر المؤمنيـن

وتشاء الاقدار ان تصاب ابنته في صغرها بمرض تدخل على اثره المستشفى لتجري لها عملية جراحية ، وعند ذاك يتحطم قلب الوالـد هلعا وجزعا ، ويتجلى شعوره الانساني العميق في قصيدة افرغ فيهـا ذوب عواطفه الابوية وقلقه وحزنه فقال :

رفقـا بهـا يـا مبضـع الجراح ... شـرحت قلـب الـوالد الملتـاح
والله لـو اطلقت روحـي لارتمت ... تحت النصـال تصدهـا بجراحي
ماذا جنت وهي الغطيمة في الربى ... حتـى تسـام خثـارة الاقـداح
بالامس مـدت عنقهـا مـن وكنهـا ... واليوم تشهد مديـة الذبـاح
الياسمين الغـض فـي اكمامه ... غبـن النضـارة اخـذه بالـراح
انا لا اخدشه بغيـر نـواظري ... وبغير شـم عبيـره الفـواح
مـا لي اراه علـى الخوان ممددا ... واكـاد الثـم انمـل الجـراح
ويحـي دفعت الى المشارط فلـذة ... كنـت الضنين بهـا علـى الارياح

ولا ريب ان الصور الفنية الحية ، هي التي اضفت على القصيدة الرونق والعذوبة وعمقت احساسنا بالنبرة الرومانسية الانسانية .

ويمكننا ان نلحق بهذا القسم من العواطف ، الشعور بالتوامـق والتعاطف مع بعض افراد الناس ، شعورا لا يرقى الـى دعوة اجتماعية محددة ، ولكنه مجرد شعور عاطفي رومانسي ، فللشاعر (الياس فرحات) قصيدة انسانية فريدة من نوعها ، نقرأها فنحس بالشعور الانساني يملأ ارجاءها ، وندقق في معانيها ، فيضوع كل معنى فيها بنفحة انسانية ، ولكننا مع ذلك لا نستطيع ان نضع اصبعنا على بيت معين او مقطـع محدد تركزت فيه هذه العاطفة .

وتدور القصيدة حول قصة (الراهبة) احدى الراهبات ، اطلت من الدير في ضحى يوم مشرق ، وقد بدت على وجهها علائم اليأس ، انها فتاة يخلب حسنها الالباب ، وان علا وجهها شحوب ظاهر ، رغـم انها ما تزال في ربيع العمر . وحاول الشاعر ان ينفذ ببصيرته الـى اعماق نفسها ، ويخترق حجب الغيب ليعرف علة وجودها ، في ذلـك الدير ، فتراءى له ان وراءها حبيبا قد غدر بها ، فلم تجد دواء لصدمتها العاطفية هذه سوى ان تهب نفسها لربها . وبينما كانت تسير على مهلها لتجمع ضمة من الزهر تهديها للسيد المسيح فادي الورى :

رأت زهرة في اعالـي الجـدار ... تـداعبها نسمـات الصبـا
فاعجبهـا شكلهـا المستطيل ... ولـون كقـوس السحاب زهـا
وقد زاد فـي حسنهـا انهـا ... تعـز علـى مـن يـريد الجنـى
فحـرك منظـرها نفسهـا ... وقـالت بمـلء حنـان لهـا :
اخيـة يهنيـك هـذا السمـو ... وهـذا البهـاء وهـذا الرضا
ولكـن اما كـان اشهى لديـك ... جـوار الازاهر بيـن الـربى
تحـوم عليـك بنـات القفيـر ... وتسعى اليـك صبايـا القرى
وتسمعك الطيـر انشادهـا ... ومنـه الحجـاز ومنـه الصبـا
لانـت تعيشيـن فـي عزلـة ... فلا فـي السمـاء ولا فـي الثرى
لمـن خلق اللـه هـذا الجمـال ... ومـن يتنشق هـذا الشـذا ؟

ثم غامت الدنيا في عيني الراهبة ، فقفلت راجعة الى الدير ، وقد ملأت نفسها الهواجس ، وحرك قلبها لهيب الذكريات ، وكانها تمثلت في هذه الزهرة الناتية السامقة صورة لنفسها ... وارخى الليل سدوله على هذه الراهبة :

ولمـا نضـت ثوبهـا لتنـام ... تبيـن مـن حسنهـا ما اختفى
فمـدت الـى صدرهـا كفهـا ... وقـد فتـح الـورد تحـت الندى
وقـال لهـا قائـل صامـت ... وكـا الذي قيـل رجـع الصدى
وانـت تعيشيـن فـي عـزلة ... فـلا فـي السماء ولا فـي الثرى
لمـن خلق الله هـذا الجمـال ... ومـن يتنشق هـذا الشـذا ؟

بهذا التحليل النفسي العميق ، اضفى (الياس فرحات) نفسية الراهبة على هذه الزهرة التي شابهتها في جمالها ورفعتها وامتناعها على من يريد اقتطافها ، وهذا التحليل الانساني الرفيع زاد القصيدة رونقا رونقا وبهاء ، لما اشاع فيها من اجواء رومانسية عميقة ، وتصوير عاطفي جميل ..

***

تلك هي جوانب متفرقة من النزعة الانسانية في شعر المهجـر الجنوبي ، تجلت لنا في قصائد متعددة ، زاخرة ببعض العواطف الانسانية السامية يجمع بينها كلها فكرة التعاطف والتوامق مع بني البشرية . ولقد حاول بعض شعراء المهجر الجنوبي ان يعالجوا قضايا الانسان عامة، فتساءلوا عن كنهه : من هو ؟ من اين جاء ؟ الى اين سينتهي ؟ ما غايته من الكون ؟ الى غير ذلك من الاسئلة العديدة التي كنا نحب ان نعـرض لها ، لولا ضيق الوقت .

وصفوة القول : لقد تجلت هـذه الجوانب الانسانية الرومانسية في الدعوة الى المحبة الخالصة لكل الناس ، ولكل ما في الوجود، دعوة عميقة اتخذت غاية لذاتها وهدفا ، وكذلك كانت الدعوة الى الجـود والبذل والاحسان ، لانها فضيلة من الفضائل النفسية الانسانية ، وقـد اصطنعوا لهذه الدعوة اساليب متعددة ـ كما رأينا ـ منها التقريـري المباشر ، ومنها القصصي ومنها التصويري . ولجأ بعضهم الى المقارنة بين الطبيعة والانسان . والجدير بالذكر انهم في معظم قصائدهم هذه بدا تأثرهم واضحا بتعاليم الانجيل ، وبروح العقيدة المسيحية . امـا تصوير المشاعر والعواطف نحو الامهات والابناء او ما سميناه (العلاقات الانسانية العاطفية) فقد سلكوا في التعبير عنها كذلك مسالك متعددة، ولكنهم جميعا استطاعوا برهافة مشاعرهم ، وصدق عواطفهم ، وباسلوبهم الفني الرفيع ان يصوروا هذه العواطف المقدسة تصويرا جميلا مؤثرا ، وظلوا يعبرون بطريقة عاطفية ، ويدورون في فلك الرومانسية الغالبة التي كانت نواة صالحة لكل ما زرعوه في الحقل الانساني الخصيب ..

القاهرة — عزيزة مريدن